# الفضائيات العربية في دائرة الاتهام

الدكتور محمود شمال حسن

**لقد كان من النتائج المترتبة على الثورة الاتصالية التي شهدها عالمنا المعاصر، انتشار الفضائيات، تلك القنوات التلفزيونية الوافدة الينا بتوجهات قيمية وآيديولوجية مختلفة. ولقد أثارت هذه الفضائيات منذ ظهورها في البلاد العربية حتى اللحظة الراهنة، جدلاً واسعاً بين الأوساط العلمية، إلى جانب الجدل الدائر بين أوساط عامة الناس.**

فلقد انقسم هؤلاء، سواء من الأوساط العلمية أو من عامة الناس إلى فريقين اثنين: فريق مؤيد، يرى في الفضائيات وسيلة اتصالية تسهم مع غيرها من القنوات الجمعية في إشاعة المعرفة عن العالم المحيط بنا، وأنها تؤدي وظيفة الترفيه والتسلية، كما تؤدي وظيفة الأخبار، بمعنى أنها تطلعنا على العالم برمته وتجعله في لحظات معدودة أمام أنظارنا.

كذلك لا تكمن وظيفتها كما يزعم المؤيدون في نقل أخبار العالم السياسية فحسب، وإنما تنقل إلينا كل جديد عن هذا العالم، لكي نكون على اتصال بما يجري فيه من أحداث وتطورات.

وفريق معارض، يرى في الفضائيات، أنها وسيلة اتصالية تستهدف تزييف وعي الأفراد، ومن ثم تصرف انتباههم إلى قضايا أقل أهمية.

واية ذلك، فإن هذا الجدل، لما يزل بعد، دائراً بين الأوساط العلمية منها والشعبية، وإننا في هذا المقال، نتبنى الرأي القائل، أن الفضائيات المنتشرة في البلاد العربية، أصبحت وسيلة اتصال تخدم بالدرجة الأساس، النظام المهيمن على السياسة، وأنها غدت مزيفة لوعي الأفراد، بما يتناسب وتوجهاته الأيديولوجية.

نقول، بالرغم من الوظائف المتعددة للفضائيات التي تؤديها في حياتنا اليومية، فإنها ولا ريب، متهمة بتزييف الوعي الاجتماعي، وبذلك اصبحت في دائرة الاتهام، وهذا معناه، أن الرسائل الصادرة من هذه الفضائيات، تستهدف تضليل الناس إزاء قضايا معينة، وفي الوقت نفسه، تحاول هذه الفضائيات تشكيل وعيهم، طبقاً لأيديولوجية النظام السياسي.

وأن الحيادية التي يؤكدها المسؤولون عن خطابها، إنما هي محض وهم. وعلى ذلك، نقول، أن الخطاب الوارد في الفضائيات، يكرس أيديولوجية المهيمن ويدعو إلى تقبل خطابه.

٣- ومما يترتب على عمليات الإشراط هذه، أن الفضائيات أخرى أقل أهمية، أو لنقل تركيز الانتباه باتجاه قضايا تهم الخطاب الرسمي بالدرجة الأساس. وأن ثمة أدلة تثبت، أن الخطاب الصادر عن الفضائيات العربية مزيف لوعي الأفراد، وفي هذا السياق نشير إلى أهم هذه الأدلة:

١- أن الفضائيات العربية وجدت في الجسد الانثوي، أسلوباً فعالاً في جذب انتباه الأفراد إلى رسائلها الاتصالية، لما لها من أهمية في استثارة الحاجات غير المشبعة، ولاسيما الحاجة الجنسية.

إن مما يجب الإشارة إليه في هذا الصدد، أن جسد المرأة يظل على الدوام رسالة اتصالية ينطوي على السحر والفتنة والجاذبية. لذا غدا أسلوباً فعالاً في الاعلانات والبرامج التلفزيونية الأخرى، التي تستهدف جذب الانتباه إلى الرسائل التي يراد إيصالها إلى الجمهور، وفي الوقت نفسه، إحداث الأثر النفسي المطلوب، ألا وهو تشكيل السلوك بطريقة تتلاءم مع توجهات المرسل في هذا الصدد.

وليس من الغريب، أن نجد أن الشركات الإعلانية إلى جانب المؤسسات الاجتماعية التي تروم إرسال رسالة اتصالية إلى الجمهور، تعمد أولاً إلى التركيز في برامجها على جسد المرأة، ذلك الجسد الذي وجدت فيه عاملاً ييسر عملية التعرض إلى الرسالة الاتصالية، ولا يعمد في حقيقة الأمر إلى التشويش على تلك الرسالة، وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على أن جسد المرأة، يعد أحد الأساليب الفعالة في عملية تزييف وعي الأفراد إزاء بعض القضايا الاجتماعية.

٢- إن عمليات الإشراط الحادثة بفعل الفضائيات العربية، تهدف من بين ما تهدف، خدمة المتلاعبين بالعقول أو على نحو أصح خدمة المشرطين، أي خدمة المرسل فحسب، وهو يعني جملة، أن الخطاب الوارد في الفضائيات، يكرس أيديولوجية المهيمن ويدعو إلى تقبل خطابه.

٣- ومما يترتب على عمليات الإشراط هذه، أن الفضائيات العربية، أخذت تعتمد على وجهة نظر واحدة وأهملت وجهات النظر الأخرى، أي أنها تعتمد على وجهة النظر التي تتفق مع أيديولوجية المهيمن حصراً، وتغييب وجهات النظر المخالفة.

٤- ولعل الاندماج في المجتمع، هو جل ما تهدف إليه عمليات الإشراط.

إذا نحن عدنا إلى عمليات الإشراط الحادثة بفعل الفضائيات العربية، فإن الهدف منها، هو جعل الفرد منجذباً إلى مجتمعه، راضياً عن نمط الحياة فيه، ومستقبلاً للأيديولوجية السائدة؛ ولعل ذلك يعود، إلى أن النظم السياسية، تحاول أن تحافظ على ما استقر من أوضاع ونظم أو ما كان مطلوباً له أن يستقر، وليس المحافظة على تماسك المجتمع، حتى في حال تعرض الأفراد إلى الشعور بالضياع والاغتراب.

وإذن، فإن استقرار الأوضاع، ولاسيما السياسية منها، هو جل ما تهدف إليه عمليات الإشراط.

٥- لقد اشتملت الرسائل الاتصالية الصادرة عن الفضائيات العربية على تناقض في تناول النسق القيمي، فتارة تدعو إلى تبني نموذج الإنسان المنجز والنموذج الإنساني ونموذج الإنسان المتدين، وتارة أخرى تغمر المشاهد بفيض من نماذج الإنسان المنحرف ونموذج الإنسان المغترب ونموذج الإنسان الاستعراضي. ونموذج الإنسان المقهور ونموذج إنسان السوق، وكل تلك النماذج من البشر التي تطرح عبر تلك الرسائل، قد تؤدي إلى عدم تثبيت النسق القيمي المطلوب، ذلك النسق الذي يشيع بين الأفراد الوحدة والتماسك والتوجه نحو الهدف المشترك.

٦- ومن الأساليب التي يلجأ إليها الخطاب الصادر عن الفضائيات العربية في تزييف الوعي، اقناع الأفراد بالرضا عن أحوالهم الاقتصادية السيئة، وذلك بتصوير قضية الغنى والفقر، على أنها حالة طبيعية، ولا يعني أنها ناشئة عن قصور السياسات الحكومية، وبذلك، فإن الخطاب الوارد في هذه الفضائيات، يصور قضية العسر الاقتصادي الذي تعانيه الأغلبية من المجتمع، أنها مرتبطة بحجم الموارد وليس لها علاقة بعدالة التوزيع، وكأن هذا الخطاب يحاول هنا أن يبرئ السياسات الحكومية من قضية التصرف اللاعقلاني بالموارد - فضلاً عن إضفاء فلسفة جبرية في عملية توزيع المنافع الاقتصادية. وبذلك أصبحت الفضائيات العربية في خطابها هذا، مضللة أو مزيفة لوعي الأفراد إزاء مشكلات اليسر والعسر.

نقول، أن خطاب الفضائيات العربية، أخذ يصور قضية الغنى والفقر، على أنها خارجة عن إرادة السياسات الحكومية، ملقياً بتبعاتها على الظروف الدولية وعلى أعداء الإنسانية.

٧- إن الدين بوصفه أسلوباً فاعلاً في الإقناع، قد وظف في عمليات التزييف أو التضليل التي اخذ يمارسها الخطاب الصادر عن الفضائيات العربية؛ وذلك بإقناع الأفراد بالرضا عن ظروفهم الحياتية الراهنة وتصوير عيش الكفاف والفقر، على أنه امتحان سماوي واختبار صبر الصابرين، وخير شاهد على ما نقول (خطبة الجمعة) التي تنقل وقائعها عبر الفضائيات. فالمتتبع لهذه الخطبة، يجد أنها خطاب ينطوي على ألفاظ غاية في البيان والتنميق اللفظي، ولكنه لا يبلغ حدود المراد، أي أنه لا يتناول مشكلات الإنسان، وهو يعيش الأزمة السياسية أو الاقتصادية او الاضطراب الاجتماعي، فضلاً عن أن هذا الخطاب يفتقر إلى البرامج اللازمة لمعالجة مشكلات المجتمع. كما أنه خطاب غير عقلاني، إذ يعتمد كثيراً على الغيب، مما يسهم ولو بطريقة غير مقصودة في تعليم الإنسان (العجز).

٨- إذا نحن أجرينا مسحاً للبرامج الفضائية الموجهة نحو النساء، نجد أنها تولي اهتماماً بالنخبة منهن، أي بأخبار تلك النساء البارزات أو اللواتي ذاعت شهرتهن في ميادين الفن والأدب والعلوم. لذا أخذ الخطاب الفضائي، يروج لهن إعلانات في محاولة لإشباع حاجاتهن من السلع الاستهلاكية، فضلاً عن إشباع الحاجة إلى الاستعراض في المجتمع. أما الغالبية العظمى منهن، فلا تحظ إلا بحصة قليلة من هذه البرامج، تلك الحصة التي لا تتناسب مع نسبتهن في المجتمع. وهذا إن دل على شيء، إنما يدل على أن الخطاب الفضائي، يكرس مصالح الفئة المسيطرة حصراً، ويعبر عن أيديولوجيتها.

والمتتبع لهذه البرامج، يجد أنها لا تعبر عن حاجات المرأة العربية من السلع والمواد الاستهلاكية، ولعل ذلك إلى أن هذه البرامج، تستند إلى مرجعية اجنبية، بمعنى أنها تحاكي أو تقلد البرامج الغربية على وجه التحديد، في طريقة انتاج الخطاب الموجه إلى النخبة من النساء، وحقيقة الأمر، إن إشاعة خطاب يعبر عن مشكلات النخبة من النساء ويتجاهل مشكلات الأغلبية منهن، إنما يراد منه، النظر إلى النساء على أنهن فئة واحدة ولا ينقسمن إلى فئات متعددة، وهو تزييف لحقيقة الأمر. ووفقاً لهذا المنطق، غدا خطاب الفضائيات، وسيلة للتعبير عن مشكلاتهن في الحياة، سواء في ميدان العمل او في ميدان الحياة الزوجية أو في ميدان الشهرة أو في ميدان التفاعل الاجتماعي.

وتأسيساً على ما سبق، نقول، أن الفضائيات العربية أصبحت مزيفة للوعي الاجتماعي، بدليل أنها تسعى للمحافظة على ما استقر من أوضاع أو ما كان مطلوباً له أن يستقر.

# العراق في فضائية الجزيرة

إسماعيل شاكر الرفاعي

**دأبت الأنظمة العربية على النظر إلى العلم وثوراته المستمرة وإلى تطبيقاته التكنولوجية وفق منظور خاص بها؛ منظور حيازتها للقوة وما يتعلق بتعزيز سيطرتها على مجتمعها، فاستوردت من هذه التطبيقات ما تراه مناسباً لتأكيد هذه السيطرة ولتعميمها على المحيط الذي تتحكم به.**

لم تنحرف الأنظمة العربية عن هذا المنظور في تعاملها مع الثورة العلمية في مجال تكنولوجيا الاتصالات، فاستوردت منه ذلك الجانب الخاص بالعمل الإعلامي المسمى لتعميمه كإعلام ناطق باسمها - من المجال المحلي - إلى فضاء أرحب هو فضاء كل الناطقين بلغة الضاد وأهملت كالعادة الجانب الحيوي منه المتعلق باستخدام الكومبيوتر واستعمالاته لأغراض مختلفة.

أصبح فضاء عالم الضاد - مع امتلاك كل نظام لفضائيته الخاصة مزحوماً بالرسائل المتعددة ذات الأهداف المختلفة باختلاف الفلسفات السياسية لهذه الفضائيات.

من بين كل هذه الفضائيات، نجحت قناة الجزيرة بتعميم ذائقة خاصة بالإرسال والاستقبال تجاوب معها الكثير من المتفرجين في عموم البلاد العربية وفي مهاجر الناطقين بلغة الضاد. يعود ذلك إلى حيوية وخصوبة برامجها وإلى خاصية الصراع التي تنتظم بتقديم بعض برامجها. لأول مرة تكسر قناة تلفزة عربية الطريقة التقليدية في تقديم البرامج، التي يتولى فيها مقدم البرنامج توجيه أسئلة لضيفه والضيف يجيب عليها بطريقة توحي وكأنه عليم بكل شيء. كسرت برامج الجزيرة هذا الإطار الضيق المحصور بمعادلة السؤال والجواب التقليدية، وحولت مقدم البرنامج من سائل إلى مشارك في نقاش. لم تعد قيمة الصحافي تقوم على نوع الأسئلة التي أعدها من حيث شمولها لكل جوانب الظاهرة، بل صارت قيمته ترتبط - إضافة إلى ذلك - بقدرته على إدارة حوار وقابليته على توزيع الأسئلة على ضيوفه والانتقال المحسوب من ضيف إلى آخر، فحولت قناة الجزيرة، بهذه الآلية، مقدم البرنامج من سائل وطالب للمعلومة إلى مصدر لها، يشارك في تقديمها مع ضيوفه الذين صرنا نسمع منهم وجهات نظر متعددة بتعدد زوايا نظرهم إلى "المسألة" مدار النقاش. لم تكن هذه "المسألة" من المسائل الفكرية المجردة، بل هي من معضلات الساعة التي يتكرر حدوثها في هذا البلد العربي أو ذاك. والقناة تضيف الأطراف المختلفة الصانعة لحدث الساعة أو المؤيدة لأحد أطرافه وبسبب من هذا التوجه اختلفت مع الجزيرة بعض الأنظمة العربية فأغلقت مكاتبها وهددتها أخرى بالغلق، كما تعرضت لضغوط قوى دولية كالولايات المتحدة الأمريكية، ولم تسلم من نقد مفكرين إسلاميين كالشيخ القرضاوي أو علمانيين مثل جورج طرابيشي.

آخر من اختلف مع قناة الجزيرة هو الدكتور إياد علاوي رئيس الحكومة المؤقتة في العراق. في مطلع شهر آب هددتها الحكومة المؤقتة بغلق مكتبها العامل في العراق، ويبدو من خلال تصريحات مسؤولي الحكومة أن قناة الجزيرة متهمة بالانحياز إلى الجماعات المسلحة التي تمارس أعمالاً تصفها الحكومة المؤقتة بالارهاب وإثارة الفوضى، في الوقت الذي تحظى فيه بتكريم خاص في التقارير المتلفزة لمراسليها، إذ تتفق هذه التقارير على وصف أعمال هذه الجماعات - في القصف والتفجير العشوائي وفي خطف الأجانب وذبحهم، وفي الفدية المالية التي يطلبونها أحياناً لإطلاق سراحهم - بالمقاومة.

فالجزيرة متهمة من قبل الحكومة المؤقتة بالانحياز إلى هذا الشكل من أشكال المقاومة، وتبخس المقاومة الأخرى والسلمية كستراتيجية ونهج للحكومة المؤقتة وحقها حين لا تعرج على ذكر ما أحرزته من نجاحات، في حين لم تثمر الأخرى المسلحة غير الخراب والدمار والفوضى.

إشكالية قناة الجزيرة تتبدى لي ماثلة في آليات عملها لا في منهجها الذي ثبتت صحته عالمياً، بعد أن نجحت الكثير من الأمم والشعوب في تمثله ثقافياً، ولم تنجح هذه الأمم في تمثل هذه المنهج إلا بعد أن أبدعت آليات خاصة نابعة من ثقافاتها المحلية تحتم علينا - لكي ننجح في تهيئة هذا المنهج - إبداعها، فهل أبدعت قناة الجزيرة آليات عمل خاصة بالأفق الثقافي العربي؟

ذلك هو السؤال الذي تتطلب الإجابة عليه إدراكاً شاملاً لمعنى المنهج الذي تبنته القناة، ولمعنى المنظومة الفكرية التي ينتمي إليها هذا المنهج وما إذا كان بالإمكان تجزئتها واختيار أطروحة "الرأي والرأي الآخر"، وإهمال علاقات هذه الأطروحة بالمفاهيم والمقولات الأخرى التي تشكل وحدة المنظومة الفكرية.

تقدم قناة الجزيرة نفسها - في آلية عملها - على انها المكان الذي يقدم فسحة من الحرية لممثلي الاتجاهات الفكرية والسياسية الذين انهكهم الكبت والحرمان الذي يزاحم الأفق الثقافي العربي - أي أنها تصل إلى التجميع والمراكمة، وقد عبرت برامجها المختلفة عن هذا المسعى.

فكيف تصرفت النخب الثقافية بهذه الفرصة الممنوحة من قناة الجزيرة وكيف عبرت عن آرائها؟ في برنامج "الاتجاه المعاكس" مثلاً، تطل هذه النخب على المشاهدين كما لو يتحكم بهم تناقض عدائي عصي على الحل، فكل متهم يناجز الآخر بمفاخرة كلامية يمتدح فيها نفسه وزاوية رؤيته ويطلب الاخر بالتنازل عن موقفه. لم نسمع أياً من المتحاورين في هذا البرنامج أو في برنامج "أكثر من رأي"، قد قرن فسحة الحرية المعطاة من قناة الجزيرة بشروط اللحظة التاريخية التي نعيش والتي من الضروري أن يأخذ حوارهم فيها - حول مسائل الساعة الساخنة - شكل تساؤل حول صحة مواقفهم، لا شكل تزكية مطلقة لمواقفهم وتوجهاتهم ونفي مطلق لأي رأي ذي توجه، ذلك لأن اللحظة التاريخية التي نعيش عراقياً وعربياً هي نتاج الممارسات التطبيقية لعموم هذه التوجهات والمواقف.

تتحول القناة في آلية عمل مثل هذه إلى امتداد للواقع، تحاول عكسه في شاشتها بدعوى الحياد في ممارسة المهنة. ومع أن السؤال عن طريقة اختيار عينات هذا الواقع والأسلوب الذي يتم من خلاله عرض هذه العينات ضروري لمعرفة مدى الصحة في عكس هذا الواقع وبالتالي مدى صحة الإدعاء بالوقوف على جانب الحياد: إلا أن ما يهمنا من إدعاء هذا الحياد في التطبيق - هو آليته التي لا بد أن تقود إلى صناعة وعي من نوع خاص، يراد له أن يتمثل هذه الآراء المنطوية على ذاتها وأن يطابقها في وعيه كمعامل لواقع مجتمعي مجزأ تتصارع أجزاؤه لا بأمل الخروج من هذه الأزمة إلى إنصهار الكل في مجتمع حديث بل من أجل الاستمرار في الصراع.

ليتمترس كل منا خلف معتقداته ولليلازم موقعه ملازمة الجندي لخندقه منهج الجزيرة في استضافة "الرأي والرأي الآخر" حيث علينا في العمل الإعلامي، وهو ينتمي إلى منظومة فكرية شاملة في منظومة الحداثة، وهي نمط في التفكير (عقلاني في جوهره)، تأخذ به الأسم والشعوب في لحظة من لحظات تطورها يعبر عن نفسه سياسياً في بدء الجماعات الأساسية في أي مجال بضرورة إدارة صراعاتها سلمياً، لكن ذلك يتطلب قبل كل شيء توفر شرط تبدأ فيه هذه الجماعات الشعور بانتفاء ضغط القوى التي كانت تقمع حرية الحركة.

في الفضاء السياسي العربي، لم تتوفر بعد ضمانات انتفاء هذه القوى لحق الجماعات في الاختيار. وتحققت هذه الضمانات عراقياً، نتيجة حدث خاص (الحرب والاحتلال) تحطمت به ركائز وبنية الدولة المستبدة التي تسلب الجماعات الأساسية بأن تتفق على مشروع ديمقراطي، وهو حتى الآن اللحظة ما زال مشروعاً، ولكن قطع أشواطاً كما هو واضح من مخطط قانون إدارة الدولة، غير أنه لم يبلغ بعد تعبيره النهائي. لا على المستوى الحقوقي في دستور دائم، ولا على المستوى السياسي في انتخابات عامة شفافة. وهذه المسألة الآن بطور انتقالي محدد بفترة زمنية كلفت فيه الحكومة المؤقتة بتهيئة الشروط اللازمة للانتقال إلى مرحلته النهائية.

نقطة ضعف هذا المشروع كامنة في وجود قوات احتلال وفي وجود قوى سياسية معنية تدعي قيموتها على الموروث الديني والقومي وحراسة القيم الإسلامية - لتحارب هذا المشروع تحت شعار مقاومة قوات الاحتلال باسم (مقاومة) لا تتوجه مباشرة نحو هدفها المعلن، بل ينكسر مسمارها يميناً وشمالاً بحيث تصبح الحصيلة الموضوعية لنشاطاتها: طلقة صوب قوات الاحتلال عشرات غيرها صوب المدنيين وصوب مرتكزاتهم الاقتصادية ومنشآتهم الحيوية وقناة الجزيرة وهي تنوه بهذه النشاطات وتستضيفها على أنها "الآخر" المقاوم إنما تسوقها على أنها البديل الشرعي لمشروع العراقيين في بناء دولتهم العصرية والسؤال الذي يلح: هل هذه (المقاومة) مؤهلة لكي تكون البديل التاريخي؟ على ما هي عليه من توجهات سياسية ونوازع أيديولوجية تكفر (الآخر) المختلف وتبيح دمه وممتلكاته وتؤمن بضرورة إقصائه واجتثاثه؟.

وهنا أود أن أضيف بأن هذه (المقاومة) لم تنل من علماء الإسلام - الذي تدعي أنه مرجعيتهم الفكرية - على إجماع يزكي ممارساتهم، أنهم تيار فيه، وحري بقناة الجزيرة أن تستضيف معهم وإلى جانبهم ممثلي التيارات الإسلامية الأخرى من العلماء.

نقطة الضعف، أي وجود قوات احتلال، التي تستغلها (المقاومة) حجة لها في إثارة الفوضى والبلبلة بوجه الحكومة المؤقتة جاءت كنتيجة للحرب وحصل معها العراقيون على فضاء الحرية الضروري، فما الضير في أن يستغل العراقيون هذا الفضاء وينمون في أجوائه قوتهم كمجتمع له استقلاليته التي تكفلها دولة عصرية عبر دستور وقوانين ومؤسسات ثم تحال الإجابة على سؤال وجود قوات احتلال إلى الحكومة الشرعية التي ستحل بعد انتخابات عامة.

إن السؤال المهم والأساس الذي يتجاوب مع روح العصر ومع واقع حال العراقيين كبنية مجتمعية أنهكتها الحروب، لا يدور حول مشروعية استغلال فضاء الحرية بل بالكيفية التي يتصرف بها العراقيون في الحرية المعطاة، وما إذا كانوا قادرين على إبداع أساسات مكينة وتحويلها - في الممارسة العملية - إلى أرضية صلبة يقيمون عليها دولتهم العصرية، بعد ان فرطت حكومة صدا حسين بثروة وطاقات العراقيين على مدى ربع قرن! لكن المباشرة ببناء دولة عصرية يجب بالضرورة أن لا يتضمن معاقبة المختلف، ذلك لأن أسلوب العقاب يستشف عن الشروع بإدارة صراع لا بمعالجة صراع، وهو أسلوب إذا لم تتنبه له الحكومة المؤقتة فإن سيرورة ما تدعي من توجهها لبنائه سينطوي على التركيز على البعد الأمني وحده. إذ لا يختلف المسوغ الذي قدمه رئيس الحكومة المؤقتة لإغلاق مكتب قناة الجزيرة في بغداد والمتجسد في (حماية منجزات الشعب العراقي) عن المسوغ الذي يرويه نظام صدام ما ارتكبه من فظائع وهو المسوغ نفسه الذي ما زالت تقدمه الأنظمة العربية تبريراً لإدامة البعد الأمني (أمنها طبعاً كأنظمة).